منهجية التعامل مع الوحي في العلوم الإسلامية منهج علماء اللغة

د .عماد عبد يحيى (*)

توطئة

القرآن الكريم، النص الرباني المعجز، تكفل الله بحفظه، واستقطب فيه قدرات اللسان الذي انزل به، فمثّله ارفع تمثيل، ونفحه مقومات الديمومة والأبدية، فالقرآن لا يكون قرآناً إلا باللسان الذي انزل به، ولا تعرف أحكامه ومقاصده ودقائقه. الا كما أنزل وسجّل وثبت.

والقرآن الكريم دليل النبي صلى الله عليه وسلم على صدق نبوّته، وانّ التحدي الذي تضمنته آيات التحدي من نحو قول الله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (سورة هود ١٣، ١٤)، وقوله تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (الإسراء:٨٨)، وقوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:٢٣، ٢٤) إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا شيء خارج عن ذلك(١).

(*) قسم اللغة العربية _ كلية الآداب / جامعة الموصل.

(١) ينظر: الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، ص٦٢.

ومن هنا فالقرآن الكريم بوصفه وحياً من الله مثل ظاهرة لسانية لفتت انتباه متلقيه، وهم أهل اللسن والفصاحة، وهناك شهادات سجّلتْها لنا السيرة في ذلك العصر، تقدم لنا معلومات واسعة عن التأثير الغلاب الذي كان لآيات القرآن في النفس البشرية.

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه يتحول إلى الإسلام بفعل هذا التأثير ولسماعه سورة طه. وورد فيما يرويه ابن هشام عن ابن إسحاق ان عتبة بن ربيعة وهو ذو بصيرة في قومه، لما حاور قريشا في مفاوضة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعرض عليه ما عنده، قال له رسول الله عليه الصلاة والسلام اسمع مني، ثم قال: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرءانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ* وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) ثم مضى رسول الله في القراءة وعتبة يسمع حتى وصل إلى قوله تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) (سورة فصلت:١-١٣)، فامسك عتبة بفيه وناشده الرحم ان يكفّ عن القراءة، وذلك خوفاً مما تضمنته الاية من تهديد. ثم عاد إلى أصحابه فلما جلس بينهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فان قصده العرب فقد كفيتموه بغيرهم، وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه

عزكم. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[٢].

وعبر الوليد بن المغيرة الذي كان مثالاً في الفصاحة عن رأيه في نظم القرآن بقوله: (والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن، وانّ له لحلاوة، وانّ عليه لطلاوة، وانّ أعلاه لمثمر وانّ أسفله لمغدق، وانه يعلو ولا يُعلى عليه)[٣].

ومن كل ذلك ومما يقاربه من الروايات الأخرى نرى أنّ القرآن الكريم ظاهرة مباغتة على مستوى البناء اللغوي، وهو ظاهرة فريدة في التاريخ، وهو لم يكن ممثلاً لتطور تدريجي.

اثر الوحي في نشوء الدرس اللغوي

١. شاع لدى الدارسين ان ظهور اللحن في العربية والخوف على القرآن الكريم منه دعا أهل العلم إلى وضع علوم العربية، ونحن نذهب إلى انه ليس وحده السبب الذي دعاهم إلى ذلك، فثمة دواع أخرى، كان أهمها الكشف عن الظاهرة اللغوية الفريدة المتمثلة بالقرآن الكريم، وتوفر الرغبة الشديدة لديهم في فهم القرآن الكريم والتعرف على أسراره، ووجدت الحاجة لدى المسلمين من غير العرب إلى تعلم العربية للتعبد بالقرآن الكريم، فضلاً عن ان الاحتكاك الحضاري بين الشعوب الإسلامية أدى إلى نضج العقلية اللغوية[٤].

(٢) فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، ط٣، ص١١١-١١٢.

(٣) ينظر: الظاهرة القرآنية ص٢٢٢.

(٤) ينظر: مدخل إلى علم اللغة، د. محمد حسن عبد العزيز، دار النهر للطباعة ١٩٨٣ ص٢٦٠.

٢. مما يتصل بالقرآن الكريم بوصفه ظاهرة لغوية فريدة، نشوء الدرس الصوتي وارتباطه به، فالأداء الصوتي المطلوب في القرآن الكريم دفع إلى دراسة مخارج الأصوات وصفاتها وطريقة نطقها، سواءاً كانت في مجال الدرس الصوتي الإفرادي أم التركيبي. ووجدنا هذه المادة الصوتية مبثوثة في كتب اللغة والنحو والبلاغة والتجويد والقراءات.

٣. إنّ المسالة اللغوية التي أثارها القرآن الكريم تستحق في ذاتها دراسة جادة تضم ألفاظه الجديدة، واستخدامه الفذ للكلمات، وهذا أمر يقتضيه إدخال المفاهيم التوحيدية في اللغة العربية، وبذلك تجاوز الحدود التقليدية للأدب الجاهلي(٥). ومن مراجعة سريعة لكتاب الزينة في الكلمات العربية الإسلامية لأبي حاتم الرازي يمكن ان نقف على هذا الأثر.

٤. احدث القرآن الكريم انقلاباً هائلاً في الأدب العربي بتغييره الوحدة الفنية في التعبير، فهو قد جعل التركيب المنظم في موضع البيت الموزون(٦). وهنا ظهرت قيمة بناء التركيب وبنيته المقطعية، وتوافق الفواصل، وتغيرها في الوحدة النصية الكاملة (السورة) وتم ذلك مصاحباً لإدخال فكرة جديدة تنطوي على مفاهيم وموضوعات جديدة لكي يتمكن من نقل العقلية الجاهلية إلى عقيدة التوحيد.

٥. ولّد القرآن الكريم الروح العلمية مع أول سورة في غار حراء(٧)، إذ يقول الله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (سورة العلق:١-٥) وتعدّ سورة العلق

(٥) الظاهرة القرآنية ص٢٣٤.

(٦) م.ن ص٢٣٤.

(٧) تنظر قصة الوحي في صحيح البخاري ٦/٢١٤-٢١٥ وصحيح مسلم بشرح النووي: ٢/١٩٧.

نقطة الانعطاف التي أحدثت تغييراً جذرياً في المسيرة التاريخية لامة أمية كانت في إطار جغرافي زمني، وكأنها لا علاقة لها بما يدور حولها في العالم(٨).

٦. سورة العلق من جهة أخرى تشير إلى ان القراءة القائمة على أساس التوحيد تعدّ الدعامة الاسنادية الرئيسة لظهور حضارة إنسانية جديدة في خصائصها وفي غايتها. وكان اللسان العربي الإطار الحامل للفكرة الحضارية الجديدة(٩).

٧. السورة من جهة ثالثة ربطت بين الشفاهية والكتابية (القراءة والتعليم بالقلم)، وقد اتصل بهذا الأمر إجراء عملي منظم بدا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبأمر منه ثم في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه. ذلكم هو جمع القرآن وتدوينه وكان من اجل حفظه من اختلاط القراءات الصحيحة والشاذة بعضها بالبعض الآخر، ودخول اللحن فيه. فاللغة هي الأصل أو القاعدة المرجعية التي يعتمدها المفسر أو الفقيه أو المحدث في فهم النص واستخراج الدليل واستنباط الحكم(١٠).

ومما يُلْحَظُ ان الخط العربي الذي كتب به مصحف عثمان لا يعرف النقط ولا الشكل؛ ولهذا لم يكن هذا الخط بمأمن من التصحيف والتحريف.. وهكذا كان الاعتماد في المحافظة على النص وما يزال منوطاً بتواتر الرواية بالسند الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وباستظهار المسلمين لهذا النص منذ أيام الصحابة رضوان الله عليهم، وهم أمناء هذه الأمة وسلفها الصالح، وهكذا لم يتكل الناس في حفظ القرآن على الكتابة وحدها ولا على الاستظهار

(٨) ينظر: الدرس الصوتي عند الخليل بين المعيارية والموضوعية، جعفر يايوش، مجلة الآداب جامعة قسنطينة العدد، ٢، ١٩٩٥ ص١٤.

(٩) م.ن. ص.ن.

(١٠) م.ن ص١٥.

وحده، وإنما قرنوا كلا من هاتين الوسيلتين إلى الأخرى، فلم يخلُ عصر من العصور إلى يومنا هذا من جمعهما والعناية بهما [١١].

انّ هذين الاصلين أكدهما الوحي من خلال أول آية أنزلت (اقرأ) ومن خلال قوله تعالى: (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه) (سورة القيامة: ١٨) ومن خلال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (قيّدوا العلم بالكتاب).

ان هذا العمل التاريخي الذي قام به عثمان رضي الله عنه جعل النص الكريم مركز اهتمام المحيط الاجتماعي الثقافي في المستقطب لأنواع الأبحاث العلمية كافة، وفي إطاره حدد المفهوم والمنهج الذي ينبني عليهما العلم. من زاوية أخرى وبمعنى مقابل، التفكير لا يكون الا من خلال منظومة مرجعية تتشكل احداثياتها الأساسية سلفاً من محددات هذه الثقافة القائمة على منظومة القيم العقدية التي اتخذت العهد الجديد للقراءة[١٢].

اثر الوحي الكريم في منهج علماء اللغة

نَهجَ القرآن الكريم في الإرشاد إلى المعرفة منهجاً علمياً واقعياً بعيداً عن النظريات الجدلية والفُروض الظنية التي تختلف فيها العقول وتتعارض فيها الأفهام، وهو بهذا ينشد خير البشرية ويجنبها مزالق الأوهام.

ومنهجه العملي يقوم على دعامتين قويتين: أولاهما ان نستفيد من تجارب غيرنا سواء أكانوا سابقين أم معاصرين، ويكون ذلك بالاستقراء والسماع،

(١١) ينظر: الأصول دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، د. تمّام حسان دار الشؤون الثقافية العامة، العراق،الهيأة المصرية العامة للكتاب-مصر، بغداد ١٩٨٨، ص٢٢.

(١٢) ينظر: الدرس الصوتي عند الخليل ص١٥.

والدعامة الأخرى ان نستعمل عقولنا وتجاربنا في طلب الحقيقة لنهتدي إلى ما لم يهتدِ إليه غيرنا، ويكون ذلك عن طريق العقل وبتعلق به القياس[١٣]. ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد) (سورة قّ:٣٧). فالمقصود بالقلب هنا العقل وبالشهيد المميز، وأمر سبحانه بعدم تعطيل وسائل المعرفة فقال: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (سورة الإسراء:٣٦)، وجعل العقل والسمع طريقا إلى الجنة، وتعطيلها يؤول بالإنسان إلى الجحيم فقال الله عز وجل: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) (سورة الملك:١٠، ١١)، وأشار إلى الاستقراء وصلته بالعقل والسمع فقال: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) (سورة الحج: ٤٦).

وقد وضع القرآن الكريم ضوابط لأصلي السماع والعقل الذي يرتبط به القياس، اللذين يعدان اصلين مهمين من أصول علم اللغة.

فمّما يضبط السماع: عدم كتمان العلم، والأمانة في نقله، وعدم تحريفه قال الله عز وجل: (وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (سورة البقرة: ٤٢) والبعد عن الجدل والاستجابة للحق القائم على الدليل، وترك مالا طائل وراءه، وفي ذلك يقول الله عز وجل: (وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) (سورة غافر: ٥) ، (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (سورة فصلت:٢٦)، وقال عز وجل:

(١٣) فلسفة المعرفة في القران الكريم، علي عبد العظيم الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، ص٢٢.

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) (سورة الفرقان: ٧٢)، فضلا عن التمييز في اختيار ما يجدي من المعلومات والدقة في اختيار من نتلقى عنه المعارف(١٤)، قال الله عز وجل: (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) (سورة الزمر: ١٧، ١٨) وقال: (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) (سورة الفرقان: ٥٩) .

ومن التطبيقات المتعلقة بالسماع وضوابطه في ميدان علم اللغة، انه على الرغم من ان الرواية والمشافهة نمط سلوكي لحفظ التراث قبل الإسلام، فان الوحي وفي ضوء الضوابط المذكورة آنفاً، ادخل على الرواية والسماع هذا النمط من الضبط والتحسين الذي جعله موضع الثقة والاحترام في حقل التوثيق والتسجيل، فتدوين التراث الإسلامي، ومنه اللغوي، كان من صدور الرجال الذين تعلموا كيف يدققون الأخذ والتحمل عن المصادر التي استقوا منها مادمتم بالرواية والمشافهة، ووصلوا في ذلك إلى درجة من الدقة والأمانة، لم تصل إليها من قبلهم أمة من الأمم، وفعلوا ذلك بدافع ديني جعلهم ينظرون إلى صدق النقل والأداء نظرتهم إلى العبادة يحتسبونها عند الله، وقد أشرنا إلى نقل القرآن الكريم وروايته، ونشير إلى ان الحديث الشريف عني به عناية فائقة، تناولت سنده ومتنه. أما عنايتهم بالشعر الجاهلي وروايته وهو يدخل ضمن العمل اللغوي أساسا، فقد تلمس فيه العلماء النواحي الآتية المرتبطة بالقرآن الكريم وهي: غريب القرآن ومجازه وتراكيبه وإعجازه وتفسير معانيه، كما تلمس اللغويون في رواية الشعر الشواهد للقواعد حينا وللغريب حينا آخر(١٥)، ومما

(١٤) ينظر: م.ن ص٢٤-٣١.

(١٥) ينظر: الأصول ص٨٥-٨٧.

يذكر في ذلك قول ابن فارس في كتابه الصاحبي: (وتؤخذ اللغة من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة ويتقى المظنون، حدثنا علي بن إبراهيم عن المعداني عن أبيه عن معروف بن حسان عن الليث عن الخليل قال: انّ النّحارير ربما ادخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنيت)[١٦]، عندئذٍ وجد الرواة أنفسهم في موقف يدعوهم إلى التحوط من قبول ما يسمعون من الشعر. فما كان منهم الا ان ارتضوا لأنفسهم منهجاً نقدياً لتوثيق النصوص يشبه منهج المحدثين، فجعلوا يصححون نسبة الشعر إلى قائله، ويحتالون في اختيار الشواهد اللغوية والنحوية ضماناً لصحة القاعدة أو لتحقيق الاجتهاد. وقد ظهر كل ذلك في جهد النحاة[١٧].

ومن خلال نظر علماء اللغة في المسموع مستهدين بالضوابط المذكورة رأينا النحاة يجرون الانتقاءات الآتية:

أ. الانتقاء الاجتماعي للمستوى اللغوي الذي يختار منه المسموع، وقد وقع اختيار النحاة في هذا المجال على اللغة الأدبية دون لغة الكلام اليومي؛ لأنها تبدو لغة واحدة على السنة المتكلمين مع اختلاف يسير في ... ة، فضلا عن كونها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والمأثور من الأمثال والأسجاع

ب. الانتقاء المكاني الذي يمثل أنقى درجة من الفصاحة. ومنها عُلْيا هوازن وهي سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف كما اختارها ابن عباس وأبو عمرو بن العلاء، كما اختار النحاة قيساً وتميماً وأسداً وطيئاً وهذيلاً.

(١٦) الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس ص٦٢.

(١٧) ينظر: الأصول ص٩٠.

ج. الانتقاء الزماني لعصر ما يسمى عصر الفصاحة الذي ينتهي نهاية القرن الثاني الهجري. وغطى ما يعتري هذا الانتقاء من نقص ولا سيما على المستوى الصوتي بمشافهة الأعراب في أثناء الرحلة إليهم، ومناقشة الأعراب الوافدين على المدن، كما غطي النقص في الجانب الصوتي أيضا من خلال العناية بالقراءات القرآنية التي تمثل في حقيقتها مستويات من الأداء اللهجي الصوتي(١٨).

أما ما يرتبط من الضوابط بالجانب العقلي، فالوحي حافل بإبراز أهمية العقل كونه أداة فهمه، ولذا حثه على النظر في الكون المنظور كما حثه على النظر في الكون المقروء. فقال عز وجل: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ*وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) (سورة الغاشية١٧- ٢٠) ويقول: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (سورة محمد: ٢٤) وقد نبه القران الكريم على لفت النظر إلى تقّري آيات الله وسننه وقياس غير المنظور على المنظور كقياس الموت على النوم والبعث والنشور على الإنبات ونحو ذلك، ممّا دفع بتمرين العقل على القياس والبحث عن العلل واوجه المشابهة. وهذا الأمر انعكس انعكاساً واضحاً على اصل من أصول علم اللغة وهو القياس وما يتعلق به من موضوعة العلل والعوامل ونحو ذلك.

وعرّفوا النحو بأنه القياس وهو في عرف النحاة إما من قبيل القياس الاستعمالي وهو انتحاء كلام العرب وبهذا المعنى لا يكون القياس نحواً، وإنما يكون تطبيقاً للنحو وامّا من قبيل القياس النحوي، ويعنون به حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه.

(١٨) م.ن ص٩٤-٩٥.

ويمكن ان ندخل قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابي الأسود الدؤلي: (أنح هذا النحو يا أبا الأسود) في الانتحاء التطبيقي، وان ندخل عمل عبد الله إسحاق الحضرمي بأنه مد القياس في العمل النظري الذي يتسم بقياس حكم غير المسموع على حكم المسموع الذي في معناه [١٩] وهكذا يروون عن الكسائي[٢٠]:

إنما النحو قياس يتبع وبه في كل أمر ينتفع

ويقول ابن الانباري: (اعلم ان إنكار القياس في النحو لا يتحقق ؛لان النحو كله قياس) ثم يقول بعد ذلك بقليل: (فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو) ويقول أيضا" (وإذا بطل ان يكون النحو رواية ونقلاً وجب ان يكون قياساً وعقلاً)[٢١].

ومن القياس قياس الشبه نحو إعراب المضارع على إعراب اسم الفاعل لما فيهما من شبه، وقياس العلة، مثل قياس رفع نائب الفاعل على الفاعل بعلة الإسناد، وقياس الطرد كبناء ليس لاطراد بناء الأفعال غير المتصرفة.

ومن الحقائق المسلمة لدينا ان العلل النحوية قد نشأت استجابة لظروف وبواعث معرفية تتعلق بطبيعة اللغة نفسها، فكان الهدف المباشر من التعليل هو تسويغ الموجود بالفعل من الظواهر اللغوية والمقنن في الواقع من القواعد النحوية، دون ان تتجاوز الموجود في الظواهر والقواعد إلى غير الموجود فيها.

وقد تأثر البحث اللغوي في جانب من جوانبه بنظرة القرآن الكريم إلى اللغات، وذلك من خلال قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ) (سورة الروم:٢٢). فكانت لعلماء العربية، ملاحظات طيبة عن

---

(١٩) م.ن ص١٦٧-١٦٨.

(٢٠) بغية الوعاة، السيوطي: ١٦٤/٢.

(٢١) لمع الأدلة في أصول النحو، أبو البركات عبد الرحمن بن الانباري، تحـ : سعيد الافغاني دمشق ١٩٥٧ ص٩٧-٩٨.

علاقة اللغة العربية بأخواتها الجزريات، فالخليل بن حمد يقول في (العين): (وكنعان بن نوح ينسب إليه الكنعانيون، يتكلمون بلغة تضارع العربية)[٢٢]، ومن المعروف ان أصحاب المعاجم وفقهاء اللغة وعلماء الأصول لم يغفلوا عن الكلمات غير العربية وعن ردّها إلى لغاتها الأصلية كالحبشية والآرامية والنبطية، كما ان بعض القائلين بالاصطلاح في نشاة اللغات قد تنبهوا إلى ان اللغة تتغير[٢٣]، يقول ابن جني بعد ان جوّز الأمرين: التوقيف والاصطلاح: (وكيف تصرفت الحال وعلى أي الأمرين كان ابتداؤها، فإنها لابد ان يكون وقع في أول الأمر بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه، لحضور الدواعي إليه، فزيد فيها شيئاً فشيئاً)[٢٤]. وهذا انعكاس لفهم قوله تعالى: (وَعَلَّمَ ءادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) (سورة البقرة: ٣١). وانتهى الأمر عند الباقلاني إلى القول في اصل اللغات انه مما لا طائل تحته، لأنه لا ينبني عليه عمل.

وكان لابن حزم موقف لغوي من القائلين بتفضيل اللغة العربية وانها أم اللغات، يقول: (وحروف الهجاء واحدة لا تفاضل بينها ولا قبح ولا حسن في بعضها دون بعض، وهي تلك بأعيانها في كل لغة، فبطلت هذه الدعاوى الزائفة الهجينة، وقد قال قوم: العربية افضل اللغات؛ لان بها نزل كلام الله تعالى، وهذا لا معنى له، لان الله عز وجل قد اخبرنا انه لم يرسل رسولاً الا بلسان قومه، وقد قال

(٢٢) العين، الخليل بن احمد، مادة (كنع).

(٢٣) مدخل إلى علم اللغة، د. محمد حسن عبد العزيز، دار النمر للطباعة، ص٢٦٩.

(٢٤) الخصائص، ابن جني: ٢٨/١.

تعالى: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) (سورة فاطر: ٢٤)، و (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) (سورة الشعراء:١٩٦)، بكل لغة نزل كلام الله ووحيه[٢٥].

بيد ان هذه الملاحظات أو المواقف لم تنشأ عنها نظرية في علم اللغة التاريخي، ولم ينبن على أساسها نظرة متكاملة للتغير اللغوي وللعلاقات الأسرية بين اللغات[٢٦].

ومما يلفت الانتباه ان القرآن الكريم حفل بذكر الآيات الكريمة التي تتحدث عن خلق الله في الكون الفسيح سمواته وأرضه وما فيهنّ، وهي اكثر من ان تحصى، ونزعم ان لفت الانتباه إلى هذا التنوع في الخلق، والتشابه في الوظيفة التي تؤديها بعض المخلوقات انعكس على نوع من الدراسات اللغوية، ونَعْني به التصنيف المعجمي القائم على الموضوعات والذي عرف بمعجمات المعاني والفروق اللغوية، وتمثل هذا في حقبة مبكرة يمكن ان يدرج تحت عنوان الرسائل اللغوية ومنها كتب خلق الإنسان ورسائل الفت في الإبل والخيل والبئر والأنواء والنخيل ونحو ذلك. وهذا النوع من الرسائل لم يعن بالتسميات فحسب بل بَحَثَ في حركات الكائن الحي وأصواته ومكان إقامته وحالاته في إرادة التكاثر والحمل والوضع وحالات الهرم ثم الموت. فكانت ثروة لفظية كبيرة، فحافظت العربية بذلك على إحساس الإنسان الأول، بان العضو الواحد وان خلق لوظيفة معينة في كل من الإنسان والحيوان، فان شكله المختلف وتكوينه المتباين عند كل نوع من الأنواع، قد كان مسوغاً كامناً لدى هذا الإنسان الأول، ليخالف التسمية باختلاف

(٢٥) الاحكام في أصول الاحكام، ابن حزم، مكتبة الخانجي: ١/٣٣-٣٥.

(٢٦) ينظر مدخل إلى علم اللغة ص ٢٧٠.

شكل المسميات، فجعل الشفة للإنسان مثلاً والمِشْفَر للإبل والمنقار للطائر غير الجارح والنسر للطائر الجارح إلى غير ذلك من الأسماء.

وبعد .. فان القرآن الكريم استأثر بانتباه المسلمين وعنايتهم إلى غير ما حد، وكان من مظاهر هذا الانتباه وتلك العناية ان جعلوا القرآن الكريم منبعاً لتفكيرهم في أمور دينهم ودنياهم، فعبدوا الله بتلاوته كما عبدوه باتباع أوامره ونواهيه، واستخلصوا من القرآن عقائدهم، وبنوا عليه معاملاتهم وسلوكهم وعلاقاتهم مع الآخرين، ولقد فسّروه بالمأثور وبالحديث وبأيام الناس، وأقاموا له ضوابط نحوية تعصم الألسنة من الخطأ في تلاوته، وتكلموا في المجاز لبيان طرق تعبير القرآن عن المعاني، واحتفظوا بالشعر الجاهلي والإسلامي وانشأوا للأدب نقداً، ليصلوا من وراء كل ذلك إلى بيان إعجازه. وبذلك يكون منهج علماء اللغة في أساسه معتمدا على ثقافة نصية شفاهية وكتابية حاول ان يصفها ثم يصنفها ويجرد منها القواعد.